 DOI:doi.org/10.21009/JSQ.22.1.04

The Apparent and the Esoteric in Qur'anic Interpretation (A Comparative Study of the Sufi and Shiʿi Approaches)

الظاهر والباطن في تفسير القرآن
(دراسة مقارنة بين الاتجاهين الصوفي والشيعي)

سلطان مهران
الجامعة الإسلامية العالمية في إندونيسيا
Email: sultan.fis@uiii.ac.id

Manuscript received: March 05, 2025, revised: November 23, 2025; approved: January 30, 2026

Abstract

The diversity of interpretations of the Qur'an has played a significant role in enriching Islamic thought throughout history. Among the methods that have attracted attention are Sufi allegorical (ishārī) and Shia esoteric (bāṭinī) interpretations, both of which emphasize the revelation of the text's inner meaning. However, ambiguity often arises regarding the methodological similarities or differences between the two. This study aims to examine the fundamental differences between these two approaches and their implications for understanding the Qur'an. It addresses whether Sufi and Shia interpretations share a common methodological framework for accessing the inner meaning or follow different paths. A comparative analytical methodology is employed, drawing on classical exegetical sources from both traditions. Examples are analyzed based on consistent criteria, including linguistic context, theoretical foundations, and doctrinal assumptions. The results reveal a fundamental difference; Sufi interpretation is rooted in spiritual contemplation and symbolism, while Shia interpretation is tied to Imami doctrine. Therefore, it is recommended that Islamic studies scholars refrain from generalizing about the forms of esoteric interpretation and conduct further studies to explore how these differences influence inter-school dialogue in the modern era.

Keywords: *Qur'anic Interpretation, Allegorical Interpretation, Esoteric Interpretation, Sufism, Shiʿism.*

ملخص البحث

ساهم تعدد مناهج التفسير وتنوعها في إثراء الفكر الإسلامي، إذ لطالما كان القرآن الكريم محورًا رئيسيًا لتأمل العلماء والباحثين عبر التاريخ. ومن بين المناهج التي حظيت باهتمام

واسع منهج التفسير الإشاري الصوفي والتفسير الباطني الشيعي، حيث يمثلان مدرستين فكريتين تركزان على معاني القرآن الباطنة. يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على الفروق الأساسية بين هذين المنهجين وتأثيرهما في فهم النصوص القرآنية، من خلال طرح سؤال رئيسي: هل يوجد توافق بين التفسير الباطني الشيعي والتفسير الإشاري الصوفي في منهجيتهما لفهم المعاني الباطنة للقرآن الكريم، أم أن لكل منهما مسارًا مستقلًا يستند إلى مفاهيم مختلفة؟ اعتمد البحث على المنهج التحليلي المقارن، من خلال الرجوع إلى نصوص من كتب التفسير لدى الصوفية والشيعة، وتحليل نماذج تطبيقية محددة وفق معايير منهجية ثابتة تشمل دراسة السياق اللغوي والموضوعي، وتتبع الأصول النظرية التي يقوم عليها كل منهج، والمقارنة بين منطلقاتهما العقدية وأدواتهما التأويلية. كما تم الاستفادة من الدراسات السابقة المتعلقة بالموضوع للتحقق من اتساق النتائج وتعزيز موثوقيتها، مما يسهم في إزالة اللبس وتوضيح الصورة العلمية لكلا المنهجين .وتوصل البحث إلى أن هناك اختلافًا جوهريًا بين المنهجين؛ فالتفسير الإشاري الصوفي يقوم على التأمل الروحي والإشارات الباطنة المستندة إلى التجربة الروحية، بينما يركز التفسير الباطني الشيعي على التأويل المرتبط بالعقيدة الإمامية وتفسير النص ضمن أطر مذهبية مغلقة. كما تبين أن التفسير الباطني الشيعي يوظف آليات تأويلية تهدف إلى ترسيخ مبادئ الإمامة، في حين يتبنى التفسير الصوفي رؤية روحانية أكثر عمومية ومرونة في فهم النصوص.

الكلمات المفتحية: *التفسير، التفسير الإشاري، التفسير الباطني، الصوفية، الشيعة*

المقدمة

تمت دراسة التفسير الإشاري والتفسير الباطني في العديد من الدراسات الأكاديمية، لكن ما يميز هذا الموضوع هو قلة الدراسات التي تناولت مقارنة بين المدرستين (التفسير الإشاري الصوفي والتفسير الباطني الشيعي) بشكل مباشر. هناك العديد من الدراسات التي تركز على التفسير الإشاري عند الصوفية أو التفسير الباطني عند الشيعة بشكل منفصل، إلا أن دراسة مقارنة بين المدرستين لم تحظ بالكثير من الاهتمام. قد تكون المقارنة جزءا معينا من الموضوع كما هو الحال في كتاب بعنوان: التفسير الإشاري ماهيته وضوابطه للأستاذ

الدكتور مشعان سعود عبد العيساوي، حيث أورد فصلا مستقلا وسماه التفسير الإشاري والتفسير الباطني. والحال [1]كذلك في دراسة بعنوان: جدلية العلاقة بين التفسير الإشاري والظاهري عند المفسرين الإشاريين، المنشورة في مجلة المنصة الأكاديمية للدراسات الإسلامية للباحث عبد الكريم سليمان. وقد تحدث بشكل موجز في مقارنة بين التفسير الإشاري الصوفي والباطني الشيعي من ضمن بحثه. ولم أجد دراسة مستقلة في مقارنة بين المدرستين إلا دراسة بعنوان: التفسير الباطني عند الشيعة والتفسير الإشاري المقبول – دراسة مقارنة – المنشورة في مجلة المعيار للباحث محمد الصالح ستي. وأجاد الباحث في دراسته حيث قارن المدرستين مقارنة إجمالية، مع التركيز على بيان الفروق الرئيسة بينهما. وكانت مسألة الظاهر والباطن جزءًا من الدراسة، حيث تناول الباحث بعض الجوانب التي تتعلق بتفسير الظاهر والباطن في كلا المنهجين، إلا أنها لم تكن المحور الرئيسي للدراسة. ما سأقوم به في هذا البحث هو التوسع في هذا الموضوع، حيث سأفصّل ما ذكره الباحث في دراسته عن الظاهر والباطن، مع تقديم تعقيب على بعض النقاط التي أشار إليها، واستكشاف المزيد من الآراء في تفسير معنى الباطن في التفسيرين الإشاري والباطني[2].

على الرغم من وجود دراسات تناولت التفسير الإشاري الصوفي أو التفسير الباطني الشيعي بصورة منفصلة، فإنّ الدراسات التي جمعت بينهما في مقارنة مباشرة لا تزال قليلة جدًا. وما يميّز هذا البحث هو أنّه لا يكتفي بالمقارنة العامة بين المنهجين، بل يقدّم تحليلًا معمّقًا لمفهوم الباطن نفسه في كل مدرسة بوصفه نقطة الارتكاز التي تنشأ منها توجّهات التفسير وطرائق التأويل. كما يسعى البحث إلى تفكيك الأسس المفهومية التي يقوم عليها كل

[1] أ.د. مشعان العيساوي، التفسير الإشاري ماهيته وضوابطه (بيروت: دار الكتب العلمية، 2013)، ص 117.

[2] محمد الصالح ستي، "التفسير الباطني عند الشيعة والتفسير الإشاري المقبول - دراسة مقارنة -"، مجلة المعيار، 48، (2009): 1-20.

منهج، وإظهار كيف أثّر فهم الباطن على آليات التفسير عند الصوفية والشيعة، وهو جانب لم يُعالج بهذا المستوى من التفصيل في الدراسات السابقة. ومن خلال هذا التحليل، يقدّم البحث إسهامًا معرفيًا جديدًا في فهم العلاقة بين المدرستين، ويبيّن أثر الفروق المفهومية على الاختلاف المنهجي بينهما، مما يساعد على بناء رؤية أوضح لطبيعة التفسير الباطني في الفكر الإسلامي عمومًا.

منهجية البحث

هذا البحث دراسة نوعية تستخدم دراسة مكتبية وتعتمد منهجًا تحليليًا مقارنًا. يُطبق هذا المنهج لتحليل موضوعين فكريين مختلفين تحليلًا معمقًا - التفسير الصوفي الإشاري والتفسير الباطني الشيعي - بهدف إيجاد أوجه التشابه (نقاط الاتفاق) والاختلاف (نقاط الخلاف) بشكل منهجي.

جُمعت البيانات في هذه الدراسة من خلال دراسة وثائقية للمصادر الأولية والثانوية. المصادر الأولية هي مراجع مباشرة من كتب التفسير المعتمدة من كلا المذهبين، مثل كتب التفسير الصوفية (كالتستري والقشيري) وكتب التفسير الشيعية (كتفسير الميزان وغيره من المصادر الكلاسيكية). أما المصادر الثانوية في الدراسة فتشمل مراجعة الأدبيات للأبحاث السابقة، والمجلات العلمية، والكتب ذات الصلة التي تناقش نظرية التأويل الباطنية في الإسلام، وذلك لتعزيز مصداقية النتائج.

تم تحليل البيانات المجمعة باستخدام تحليل المحتوى النوعي وفق الخطوات التالية: أولاً، التصنيف: تجميع نصوص التفسير بناءً على معايير محددة كالسياق اللغوي، والأساس النظري، والافتراضات العقائدية. ثانياً، المقارنة: مقارنة آليات التفسير بين المدرستين لفهم

التفاعل بين التجربة الصوفية وعقيدة الإمامة الشيعية في تفسير النص نفسه. ثالثاً، الاستنباط/التفسير: استخلاص النتائج المتعلقة بالتوجه الفكري والأهداف اللاهوتية لكل منهج في الكشف عن المعنى الباطني للقرآن.

العرض

مفهوم الظاهر والباطن في اصطلاح أصحاب التفسير الإشاري الصوفي والباطني الشيعي

الظاهر في اللغة مشتق من أصل ظهر وهو بمعنى القوة والبروز. ظهر الشيء فهو ظاهر، أي انكشف وبرز. والباطن عكسه وهو من أصل بطن وهو إنسي الشيء والمقبل منه. وباطن الأمر دخلته، خلاف ظاهره[3].

وأما في اصطلاح أصحاب التفسير الإشاري في معنى ظاهر القرآن وباطنه والأصل عندهم في ذلك ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، لِكُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ) وقد اختلف العلماء في معنى الظهر والبطن، فذكر بعضهم بأن الظاهر هو اللفظ، والباطن هو التأويل. وقال بعضهم: "إن القصص التي قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين إنما هو حديث حدث به، عن قوم، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم فيحل بهم مثل ما حل بهم". ولكن مدار البحث هو لأصحاب التفسير الإشاري الذين يقولون بأن الظاهر هو ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر والباطن ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله عليها أرباب الحقائق. وقال السيد عبد الله بن محسن العطاس

[3] أحمد بن فارس القزويني، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (بيروت: دار الفكر، 1979)، ج3، ص469-470.

رحمه الله: "إنَّ القرآن له ظاهر وباطن، فباطن القرآن هي المعاني القديمة القائمة بذاته تعالى، فهو قبل أن يقع في القلب وتنطق به الألسن بالأصوات والحروف المؤدية لمعانيه القديمة بذاته تعالى قرآن بالمعنى الباطن، وإذا وقع في القلب ونطقت به الألسن بالأصوات والحروف فهو قرآن بالمعنى الظاهر[4] ".

والمقصود هنا أن الباطن هو مراد الله تعالى من خطابه، وقد ذم الله تعالى الكفار بأنهم لا يفقهون كلام الله تعالى، مع أنهم عرب، والقرآن نزل بلغتهم، ولكن أراد الله أن يذمهم لا لعجزهم لفهم اللفظ وإنما لفهم المراد، وهذا ما أشاره الله تعالى في قوله: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 78].

أما في اصطلاح أصحاب التفسير الباطني الشيعي في معنى باطن القرآن هو تأويل آيات القرآن غير معناه الظاهر والذين يعلمون التأويل هم الأئمة من أهل البيت وهم الراسخون في العلم الذين ذكرهم الله في القرآن. وقد استُنبط هذا التعريف من خلال عدة رواياتهم. ومنها ما روي عن جابر، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء في تفسير القرآن فأجابني، ثم سألته ثانيةً فأجابني بجواب آخر، فقلت: جعلت: فداك، كنت أجبت في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟ فقال عليه السلام لي: يا جابر، إن للقرآن بطناً، وللبطن بطن وظهر، وللظهر ظهر. يا جابر، وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية ليكون أولها في شيء، وآخرها في شيء، وهو كلام متصل يتصرف على وجوه. ومنها ما روي عن الفضيل بن يسار، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية: ما في القرآن آيةٌ إلا ولها ظهر وبطن، وما فيه حرف إلا وله حد، ولكل حد مطلع. ما يعنى بقوله: لها ظَهْرُ

[4] زين بن سميط، الفيوضات الربانية من أنفاس السادة العلوية (تريم: دار العلم والدعوة، ب.ت.)، ص56.

وبَطْن؟ قال: ظهره وبطنه تأويله، منه ما مضى، ومنه مالم يكن بعد، يجري كما تجري الشمس [5]والقمر، كلما جاء منه شيء وقع، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ﴾ نحن نَعْلَمُه. والروايات في كتب الشيعة كثيرة في هذا الباب، تؤيد ما ذكر في تعريف الباطن سابقا[6].

فإذن، ثمرة الخلاف في مفهوم باطن القرآن بين المدرستين هي أن باطن القرآن لدى أصحاب التفسير الإشاري الصوفي هو فتح من عند الله لفهم الآيات بإشارات أوردها الله تعالى في قلوب العارفين والسالكين، ولا ينافي إشارتهم للمعنى الظاهر، بل يقرون عليها ويجعلون ما فتح الله عليهم من إشارات إضافة إلى الفهم وزيادة في الفتح. وهذا ما أقره العلماء الصوفيون في القول بالتفسير الإشاري .

أما أصحاب التفسير الباطني الشيعي، حسب الروايات الموجودة، يفهم من ذلك أن التفاسير الباطنية هي المعنى المراد الحقيقي، وذلك لأن الذي يعلم حقيقة مراد كلام الله هم الراسخين في العلم وهم الأئمة من أهل البيت، ولذلك كثر ما نجد في تفاسير الشيعة روايات أهل البيت تبين عن تفسير كلام الله تعالى بمعنى غير المعنى الظاهر. وذكر علماؤهم أن المعنى الباطني هو الوجود والمرجع الحقيقي الأصيل في تفسير القرآن الكريم .

ضوابط استعمال المعنى الباطني للقرآن في التفسير الإشاري الصوفي ونماذجه

بعد ما ذكر سابقا من تعريف الظاهر والباطن عند أصحاب التفسير الإشاري الصوفي، تناول العلماء المؤيدون لهذا اللون مفهوم الباطن باعتباره إشارات عميقة وروحية تتطلب فهما خاصا. ولضمان سلامة استنباط هذه المعاني دون الخروج عن النصوص الشرعية

[5] محمد بن مسعود العياشي، التفسير، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم (طهران: مؤسسة البعثة، 2000)، ج1، ص12.

[6] محمد بن مسعود العياشي، التفسير، ج1، ص13.

والسياق اللغوي، وضع العلماء ضوابط دقيقة لقبول استعمال التفسير الإشاري. ومن هذه الضوابط: أن يتناسق المعنى الإشاري والمعنى اللغوي، وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4] فدلت هذه الآيات أن القرآن الكريم وبيانه باللغة العربية، ويفهم القرآن بفهم عربي ولا يعارض السياق اللغوي. فكل معنى مستنبط لا ينطبق مع اللسان العربي، فالاستنباط باطل ومردود لا يلتفت إليه .

ومن الأمثلة التي تعارض السياق اللغوي هي بعض تفاسير الحروف المقطعة في فواتح السور، وقد ذكر الفخر الرازي في تفسير سورة مريم أن هذه الأقوال المتعلقة بتفسير فواتح السور ليست بقوية، وفتح هذا الباب يؤدي إلى تقول الناس في هذه المسألة التي لا تدل عليه اللغة أصلا. ومنها هو التأويل البعيد السخيف كما هو مورود في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69] فجعل كلمة لمع من فعلا ماضيا بمعنى أضاء، والمحسنين مفعولا به، وهو تأويل بعيد عن السياق اللغوي السليم. ومنها ما ورد في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255] حيث قام البعض بتفسيره على أنه من قراءة الكلمات بشكل منفصل، فجعلوا المعنى [7]يتغير إلى 'من ذلّ ذي يشفَ عُ'، أي من ذل نفسه يحصل شفاء النفس، فأدرك وعِ ذلك. وهذا لا شك تلاعب بتراكيب الكلمات، فضلا عن أنه لا يتوافق مع السياق النحوي.

ومن الضوابط عدم مخالفة المعنى الإشاري بنصوص الشريعة، فلو كانت هذه الفتوح والإشارات تعارض نصا شرعيا ثابتا، لما جاز الاستناد إلى تلك الإشارات، وقد أشار إلى ذلك

[7] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1999)، ج21، ص468.

الإمام الطبري بقوله: " فمن ادَّعى في التنزيلِ ما ليس في ظاهرِه، كُلِّف البرهانَ على دَعْوَاه من الوجهَ الذي يجبُ التسليمُ له ."

ومن الضوابط أن يتوافق المعنى الإشاري والمعنى الظاهر، وهذا الضابط كما أشرنا سابقا بأن المعنى الإشاري لا يخالف المعنى الظاهري، وإنما زيادة في المعنى دون التضاد. ومن التوافق هو إمكانية تطبيق المعنى الإشاري مع المعنى الظاهري معا، وقد أشار بعض الصوفية بأن كل باطن خالف ظاهرا فهو باطل. وعدم الادعاء بأن المعنى الإشاري هو المراد وحده دون الظاهر، وهذا الادعاء هو مذهب أصحاب التفسير الباطني الشيعي، وسنذكره[8].

ولو نظرنا إلى جل التفاسير الإشارية، فسنرى أن أغلبها موافقة لهذه الضوابط، وذلك أن غرض هذه المدرسة ليست مخالفة الظاهر، وإنما لزيادة في فهم ما خفي من الآيات من إشارات وتجليات تتعلق بالأمور الأخلاقية وتزكية النفس، وليس إضافة شرع جديد. وهذا كثير في كتب ومؤلفات علماء الصوفية في التفسير الإشاري. ومنها على سبيل المثال مما فتح الله على الإمام القشيري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: 81] فقال: "في الظاهر جعل لكم من الأشجار والسقوف ونحوها ظلالا.. كذلك جعل في ظل عنايته لأوليائه مثوى وقرارا. وكما ستر ظواهركم بسرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأس عدوكم- كذلك ألبس سرائركم لباسا يلفكم به في السراء والضراء، ولباس العصمة يحميكم من مخالفته، وأظلكم بظلال التوفيق مما يحملكم على

[8] أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان (القاهرة: دار ابن عفان، 1997)، ج3، ص393.

ملازمة عبادته، وكساكم بحلل الوصل مما يؤهلكم لقربته، وصحبته." وهذا مزج المعنى الظاهر بالمعنى الباطن، دون الخوض إلى أشياء تنافي اللغة والشرع[9] .

ومما فتح الله تعالى على السيد أحمد بن حسن العطاس في قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ٧٩﴾ [الواقعة: 79] فقال: "لا يقف على عجائبه إلا المطهرون، وهكذا في جميع الأشياء، فمن ابتغى العلم فقل له: لا يمسه إلا المطهرون. فمن ابتغى الولاية فقل له: لا يمسها إلا المطهرون[10] ".

وأمثلة هذا النوع من التفاسير والمعاني الرمزية في كتب الصوفية لا تُعد ولا تُحصى، إذ تكاد تملأ صفحات مؤلفاتهم وتغني خزائن معرفتهم الروحية. ولو أننا نظرنا إلى أمثال هذه التفاسير بعين التأمل والتمعن، فإن القارئ الذي يفتح قلبه لاستقبال تلك الأسرار سيتفاجأ بعجائب لا حصر لها، تحمل في طياتها إشارات دقيقة من القرآن الكريم، وتكشف له عن أبعاد روحانية ومفاهيم عميقة قد تكون غائبة عن الفهم الظاهر. ويجد القارئ نفسه يتلذذ بقراءة هذه المعاني ويشعر بانشراح عميق في قلبه، حيث تكون تلك الإشارات غذاءً لروح الإنسان، تهذب النفس وترتقي بها، فتزيد من صفائها وتزكيتها. ورغم أن هذه التفسيرات قد لا تكون من باب التشريع أو الحكم الفقهي، فإنها تبقى ذات قيمة عظيمة لأنها تمس الجوانب الروحية للإنسان وتغذي إيمانه. ومع ذلك، يجب أن نلتزم بالضوابط الشرعية المقررة، ولا يمكننا أن نعرض عن المعنى الظاهر أو نتجاهله، بل لابد من الجمع بين المعاني الظاهرة والمعاني الباطنية.

[9] عبد الكريم القشيري، لطائف الإشارات، تحقيق: عبداللطيف حسن عبدالرحمن (بيروت: دار الكتب العلمية، 2007)، ج2، ص328.

[10] زين بن سميط، الفيوضات الربانية، ص119.

ناقش بعض العلماء الشيعة مدرسة الإشارات التفسيرية في القرآن الكريم، حيث يرى البعض أن هذه الإشارات قد تكون منبعها إما إشارات ربانية أو شيطانية، مما يجعل من الصعب التمييز بينهما في بعض الأحيان. من المهم أن نذكر هنا أن هذه الإشارات لم تُستند إلى أي دليل شرعي قاطع أو نصوص صريحة من القرآن أو السنة، بل تم استنباطها باستخدام العقل والتفسير الشخصي، وهذا ما يثير الجدل حول مصداقيتها وموثوقيتها، على الرغم من أن بعض هذه الإشارات قد تكون صحيحة إن كانت من إلهام رباني، إلا أن المشكلة تكمن في أنها لا تمثل حجّة على الآخرين، بل هي حجة على قائلها نفسه فقط، أي أنه لا يمكن للمرء أن يفرض هذه الإشارات على غيره على اعتبار أنها تفسير صحيح وموثوق للآيات القرآنية[11] .

الرد على هذه الفكرة يكمن في التأكيد على أن الإشارات الشيطانية، إن كانت موجودة، لا يمكن أن تكون طريقًا يؤدي إلى زيادة التقوى أو ارتقاء النفس. بل على العكس، من المتوقع أن تكون هذه الإشارات دافعًا للابتعاد عن الهداية وتقويم السلوك الروحي. وفي هذا السياق، يذهب بعض العلماء إلى أن الإشارات التي يتم تفسيرها بطرق تجعلها تتناقض مع تعاليم التقوى وتهذيب النفس تكون غالبًا من إشارات شيطانية، تهدف إلى تشويش الفهم الصحيح للقرآن وزعزعة اليقين.

يتعلق بحجيتها فإن علماء الصوفية لا يهدفون إلى الفرض بقبول هذه التفاسير الباطنية على عامة الناس، بل يتم تقديمها كطريقة للتعليم الروحي وزيادة الفهم العميق للقرآن، مع مراعاة أن هذه التفاسير الباطنية لا تتناقض مع الظواهر القرآنية ولا ترفضها.

[11] محمد هادي معرفة، التفسير والمفسرون، ج2، ص489.

بل هي إضافة تتضمن معاني أعمق ترتبط بالمجالات الروحية والنفسية، التي يمكن أن تكون نافعة للمتصوفين والمجتهدين في طريقهم نحو الله.

ضوابط استعمال المعنى الباطني للقرآن في التفسير الباطني الشيعي ونماذجه

حاول الباحثون الشيعيون استنتاج ضوابط للتفسير الباطني، واستنتجوا بأن ضوابط التفسير الباطني، هي: عدم التعارض مع ظاهر الآية وذلك بالالتفات إلى المعنى الظاهر، وأن يتناسب المعنيين بحيث تكون متقاربة، وعدم منافاته للأدلة القطعية والآيات المحكمة، والاستفادة من القرائن المعتبرة من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته رضوان الله عليهم، وكذلك القرائن العقلية، وأن يستخرج مفهوم عام من الآية، وألا يتعارض مع الشرع والعقل، وألا يدعي أنه المراد وحده دون الظاهر[12] .

وإذا نظرنا إلى هذه الضوابط، سنجد أنها تشبه إلى حد كبير الضوابط المعتمدة في التفسير الإشاري. وكيف لا، وقد استند الباحثون في استنباط هذه الضوابط إلى كتب تتعلق بالتفسير الإشاري؟ وبالتالي، يمكن القول إنهم قد وضعوا ضوابط التفسير الباطني مستلهمة من تلك الخاصة بالتفسير الإشاري.

وبالإضافة إلى ذلك، نجد أن هذه الضوابط تتناقض مع كلام بعض علماء الشيعة، الذين يرون أن المعنى الباطني، كما هو مفسر عند أئمة أهل البيت، هو المراد الحقيقي دون المعنى الظاهري. ولو نظرنا إلى تفاسير الشيعة، سنجد الروايات المنتسبة إلى أهل البيت رضوان الله تعالى عليهم، وهم يفسرون القرآن بالمعنى الباطني، واجتهادات من العلماء والمفسرين،

[12] علي محسن جبر وعلاء فليح حسن، "حجية التفسير الباطني"، مجلة آداب الكوفة، 56، (2023): 455-456.

وخاصة في المسائل المتعلقة بالإمامة والولاية وكلامهم في الصحابة الكرام، وذكروا بأن المعرفة بالباطن هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة القرآن، "فلا يفهم من ظاهره معنى ولا يؤخذ منه حكم"، وهذا يعارض الضوابط المذكورة بلا شك. كما ذكروا في أقوالهم: "إن كل ما ورد في القرآن من المدح، سواء كان كناية أو صراحة، فإنه يُنسب إلى محمد وآله الطاهرين، وكل ما ورد فيه من القدح فإنه يُحمل على أعدائهم السابقين واللاحقين، سواء كان ذلك متعارضًا مع الظاهر أم لا[1413] [13]".

ومن الاتجاه الباطني الذي يحاول إثبات الولاية ما نسب عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: 208] قال: أتدري ما السلم؟ قال: قلت: أنت أعلم. قال: ولاية علي والأئمة الأوصياء من بعده، قال: وخُطوات الشيطان، والله ولاية فلان وفلان. ومن الاتجاه الباطني الذي يحاول في الطعن على الصحابة الكرام ما نسب عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: 165] فقال: هم أولياءُ فُلانٍ وفُلانٍ اتَّخَذوهم أئِمَّةً مِن دونِ الإمامِ الذي جَعَلَ اللهُ للنَّاسِ؛ فلذلك قال اللهُ تَبارَكَ وتعالى ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ١٦٥﴾ وقوله في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ قال: هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. والنماذج المذكورة هنا تعكس اعتقادهم بأن التفسير[1615] [14]

[13] محمد هادي معرفة، التفسير والمفسرون، ج2، ص469.

[14] محمد هادي معرفة، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب (مشهد: الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، 1997)، ج2، ص470.

[15] محمد بن مسعود العياشي، التفسير، ج1، ص74.

[16] محمد بن مسعود العياشي، التفسير، ج1، ص102.

الباطني، وليس الظاهر، هو المعنى الحقيقي المقصود. ومع ذلك، هذه الأمثلة ليست إلا جزءا صغيرا من عدد كبير من الروايات التي تدعم هذا الاعتقاد.

ومن التناقضات أن لتفاسير الشيعة مخالفة لنظم القرآن ولغة العرب، وذلك مثل ما نسب عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16] قال: النجم: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والعلامات: الأوصياء بهم يهتدون[17] . وكذلك تتعدد الأمثلة في تفاسير الشيعة التي تتعارض مع الضوابط التي ذكرناها. فهذه التفاسير، رغم أنها تستند إلى روايات منسوبة إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام، إلا أنها تحتوي على تفسيرات باطنية. وهذا يشير إلى أن باب التفسير الباطني مفتوح، خاصة عندما يتماشى مع عقيدتهم في مسائل الولاية وغيرها، مما يجعل الضوابط التي ذكرناها من أقوال مفكريهم مجرد عبث.

أوجه الشبه والفرق بين التفسير الإشاري الصوفي والتفسير الباطني الشيعي

الشيعة والصوفية يشتركان في عدة مفاهيم رئيسية تتعلق بالمعنى الباطني للقرآن الكريم، إذ يُقرّ كل منهما بأن للقرآن معنىً باطنياً يختلف عن المعنى الظاهري الذي يتبعه معظم الناس عند قراءته. الفكرة الأساسية التي يتفق عليها كلاهما هي أن النصوص القرآنية تحمل دلالات أعمق لا يمكن إدراكها من خلال المعاني الظاهرة فحسب، بل تحتاج إلى فهم خاص يعتمد على الكشف الروحي والتفسير الباطني. ويتفقان أيضا في استنادهم لهذا القول من الروايات الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته. ومن الشبه أن الصوفية يقرون بالمعنى

[17] محمد بن مسعود العياشي، التفسير، ج2، ص260.

الظاهر دون تفريطه بالمعنى الباطني، كذلك نجد بعض الشيعة يقرون أيضا بالمعنى الظاهري، وإن قدم بعضهم المعنى الباطني على المعنى الظاهري.

ومنه أنهما يشتركان في كيفية استخراج المعنى الباطني، وهو الإلهام، حيث إن الشيعة تعتقد بأن أئمة أهل البيت ألهمهم الله للحصول لذلك المعنى، وأيضا من خلال مفاهيم آبائهم من أهل البيت. والصوفية قالوا بأن المعاني الباطنية إنما هي فتوحات ربانية وإلهامات إلهية أوردها الله تعالى في قلوب العارفين به والسالكين في طريقه. فالعلم بالمعنى الباطني من العلم اللدني وهو الوهبي الذي هو ثمرة التقوى والاستقامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: 282] وليس من العلم الكسبي. هذه هي بعض أوجه التشابه الرئيسية بين المدرستين في تعاملهما مع المعنى الباطني للقرآن الكريم، والتي تعكس الاعتقاد بأن القرآن ليس مجرد كتاب يحتوي على حكم وأحكام ظاهرية، بل هو بحر عميق مليء بالمعاني التي لا يمكن أن تُكتشف إلا من خلال الكشف الإلهي والفهم الروحي.

أما أوجه الفرق بين المدرستين، فأهم الفروق أن أصحاب التفسير الشيعي الباطني لا يقرون بالظاهر، ولو ادعوا التقرير فالحقيقة أنهم لا يقرونها كمقصود الآية. أما الصوفية فهم يقرون المعنى الظاهري، ويقدمونه على المعنى الباطن إن وجد التعارض. ويظهر الاختلاف أيضاً في المنهج اللغوي؛ فالتفسير الإشاري الصوفي .رغم طبيعته الروحية .يظل قائمًا على علاقة ما بالنص، ويحرص على عدم الخروج عن الدلالة العربية أو السياق القرآني. أما التفسير الباطني الشيعي فإنه يرتبط غالبًا بروايات مروية عن الأئمة، ولو خالفت قواعد اللغة أو انسجمت مع تأويلات مذهبية سابقة. كما يختلف المقصد النهائي للتفسير الباطني عند المدرستين؛ فالصوفية يربطون إشاراتهم بالتهذيب الروحي وتزكية النفس وإصلاح القلب، بينما يحمل التفسير الباطني الشيعي وظيفة عقدية وسياسية

واضحة، تتمثل في إثبات أصول المذهب وبناء منظومة الإمامة على أساس قرآني باطني. ومن الفروق أيضا، أن تفاسير الشيعة الباطنية، تستند إلى روايات المعصومين لديهم من أهل البيت، حيث إنهم يقولون لا يفهم باطن القرآن سواهم. وأما الصوفية فإن المعاني الباطنية يعرفها ويكشفها العلماء الربانيون العارفون السالكون. وذلك بصالح اتصالهم بالله وارتقاء تقواهم فوهبهم الله تلك المعاني والإشارات.

خاتمة البحث

توصلت هذه الدراسة إلى نتائج عدة، وهي :(1 أن الصوفية اشتراك المدرستين في الإيمان بوجود معنى باطني، إلا أن هذا الاشتراك لا يعني الاتفاق في طبيعته ولا في ضوابط استنباطه. (2 اختلاف كبير في تحديد علاقة الباطن بالظاهر؛ فالصوفية يجعلون الظاهر أصلاً لا يُخالف، بينما تقدّم أغلب التفاسير الشيعية الباطن بوصفه هو المعنى الحقيقي المقصود(3 .أن التفسير الإشاري الصوفي أكثر ارتباطاً بالدلالة اللغوية، ويُبقي على البناء القرآني، بينما تعتمد كثير من التفاسير الشيعية الباطنية على روايات منفصلة عن السياق اللغوي (4 .تباين المقاصد التفسيرية؛ فالإشاري الصوفي يهدف إلى تهذيب السلوك، بينما الباطني الشيعي يهدف إلى تثبيت مبادئ الإمامة والمفاهيم العقدية المرتبطة بها. (5 .أن التفاسير الإشارية مصدرها الفتوحات التي ألهمها الله على قلوب العارفين، وأما الشيعة فمعظمها مأخوذة من روايات منسوبة لأهل البيت.

(6وجود ضوابط صارمة لقبول التفسير الإشاري عند العلماء، مثل عدم مخالفة النص والسياق، في حين أن الضوابط في التفسير الباطني الشيعي مبنية على حجية قول الإمام المعصوم لديهم (7 .تُظهر الدراسة أن التفسير الباطني الشيعي وفق عيّنات التحليل، يقدِّم

تأويلات بعيدة عن النظم القرآني، بينما تظل الإشارات الصوفية أقرب إلى القبول العلمي مع مراعاة ضوابطها.

يتبين من خلال هذه الدراسة أن مفهوم الباطن في التفسيرين الإشاري الصوفي والباطني الشيعي يلتقي في أصل الفكرة، لكنه يختلف جذريا في المنهج والغاية والضوابط. فقد كشف التحليل المقارن أن التفسير الإشاري، رغم اعتماده على الإلهام والذوق الروحي، يظل ملتزما بالسياق اللغوي وبظاهر القرآن، ولا يقبل أي معنى يخالف النص أو يلغيه، مما يجعله أقرب إلى الضوابط العلمية التي وضعها المفسرون. أما التفسير الباطني الشيعي، كما ظهر في النماذج التي تناولتها الدراسة، فيقوم على مركزية الروايات المنسوبة إلى الأئمة، ويقدم الباطن بوصفه المعنى الحصري المقصود، ولو كان بعيدا عن الدلالة اللغوية أو السياق.

وقد سعت هذه الدراسة إلى بيان هذه الفروق بوضوح عبر تحليل نصوص تفسيرية من المدرستين، ومقارنتها بضوابط القبول عند العلماء، مما أتاح التحقق من النتائج بصورة منهجية. وتبرز أهمية هذا البحث في أنه يقدم تصورا أكثر دقة للعلاقة بين الظاهر والباطن في المدرستين، ويصحح بعض الانطباعات الشائعة التي تساوي بينهما دون نظر في الأصول والمعايير. وبذلك يفتح هذا العمل مجالا أوسع لفهم أكثر توازنا للتراث التفسيري، ويمهد لدراسات لاحقة يمكن أن تتناول بعمق أكبر أثر هذه المناهج على الفكر العقدي والسلوكي في الإسلام.

Bibliography

القرآن الكريم.

ابن بلبان الفارسي، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1993)

ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، (القاهرة: دار هجر، 2001)

أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان (القاهرة: دار ابن عفان، 1997)

أبو بكر البزار، البحر الزخار، تحقيق: عادل بن سعد (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، 2009)

أحمد بن فارس القزويني، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (بيروت: دار الفكر، 1979) .

جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974)

د. حسين علي عكاش، "التفسير الصوفي الإشاري للقرآن الكريم: منهج الاستنباط والدلالة الجديدة"، مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية، 17، (2008): 43-74 .

زين بن سميط، الفيوضات الربانية من أنفاس السادة العلوية (تريم: دار العلم والدعوة، ب.ت.)

عبد الكريم القشيري، لطائف الإشارات، تحقيق: عبداللطيف حسن عبدالرحمن، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2007)

علي محسن جبر وعلاء فليح حسن، "حجية التفسير الباطني"، مجلة آداب الكوفة، 56 3،

(2023): 442-463.

الفخر الرازي، مفاتيح الغيب (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1999)

محمد الصالح ستي، "التفسير الباطني عند الشيعة والتفسير الإشاري المقبول -دراسة مقارنة-"، مجلة المعيار، 48 23، (2009): 1-20.

محمد بن مسعود العياشي، التفسير، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة – قم (طهران: مؤسسة البعثة، 2000)

محمد هادي معرفة، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب (مشهد: الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، 1997).

أ.د. مشعان العيساوي، التفسير الإشاري ماهيته وضوابطه، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2013)